المبحث الثالث

نواقيس الخطر

obeikandl.com

obeikandl.com

البرشام صكوك نجاح أم هزيمة مدوية؟

ترى كم هو مقدار الجهد الذي يحتاجه طالب المرحلة الثانوية لكي يجتاز الامتحان النهائي ويحقق النجاح؟

يبدو أن طرح هذا السؤال يكتسب قيمة وأهمية خاصة، في ظل ما تتحفنا به الصحف المحلية من أخبار بعض الطلبة الذين يمارسون الغش في قاعة الامتحان سواء أكانوا محترفين في هذا الفن أم هواة مبتدئين!!

يعد مثل هذا السلوك المرفوض الذي يمارسه أولئك الطلبة انعكاسا عمليا لأفكارهم التي صورت لهم صعوبة نيل النجاح دون اللجوء إلى استخدام الأساليب الرخيصة التي تعتمد على التحايل والخداع لبلوغ تلك الغاية!!

وليت هؤلاء الطلاب وقفوا عند مستوى الشعور بالعجز عن تحمل تبعات النجاح، ولم يمارسوا القفز فوق النظم والقوانين، إذن لالتمسنا لهم العذر ولاقترحنا عليهم التريث والانتظار وإعادة الكرة في العام الدراسي المقبل ليعوضوا ضعفهم في الدراسة لكنَّ أفراد هذه الفئة لم يروا أن في إعادة الكرة والمصالحة مع الكتاب المدرسي خيراً؛ لذا فالهرب للأمام واختلاس فرص للغش هو السبيل الأوحد في نظرهم للنجاح عاماً بعد عام.

obeikandl.com

ولأنهم لم يتأهلوا لحصده بالطرق الشرعية فقد بدا لهم أن الخيار المناسب للانتقال للصف التالي هو الدخول من الباب الخلفي وخطف النجاح بعد أن عجزوا عن نيله بالطرق المشروعة!!

عبر الباب الخلفي والدهليز المظلم يثب الطالب الذي يغش في الامتحان على حق ليس له فينال النجاح فيما إذا تمكن من المراوغة أو نامت عنه العيون ـ وهو الذي كان مرشحا بامتياز لينال الرسوب في المواد التي غش فيها!!

يحق لنا إذن أن نسأل آباء أولئك الطلاب المتطفلين أين أنتم من فعل أبنائكم؟ ولماذا نامت عيونكم إلى هذا الحد؟ أوليس من الواجب أن يحظى الطالب بقدر من الاهتمام والرعاية الأسرية التي تمنحه القدرة على الوفاء بالتزاماته التعليمية على النحو اللائق والمطلوب؟

أو ليست غفلة الآباء وقلة اكتراثهم بحال الأبناء هي أحد الأسباب المباشرة في تحول بعض الطلاب إلى لصوص غير ظرفاء يدخلون (البرشام) المكتوب إلى قاعات الامتحان بأشكال ومواصفات يعجز عن ابتكارها الشيطان؟!

الأغلب أن من شب على شيء شاب عليه، وبهذا فالمجتمع موعود باستلام عهدة فاشلة عجز عن حمايتها الآباء!! وعليه ألاّ يفاجأ بمثل هذا الموظف الذي أنهى الدراسة الجامعية بالغش والتدليس ثم انخرط في صفوف العاملين؟!

وما أفدح الضريبة التي سيتكبدها المجتمع إذا عمل مثل هذا الشخص المتحفز لاقتناص الغفلة، المتدرب على مخاتلة الحراس والمراقبين، محاسبا في مؤسسة، أو أمينا لخزانة مالية، أو وضعت بين يديه عهدة وكان قادرا على التلاعب بها، إذن فلن يتردد في اغتنام الفرصة وأخذ ما ليس له بحق!!

ولم لا يفعل ذلك وقد كان أيام الدراسة خبيرا في فن السرقة والاختباء وهو هنا في لحظة استلام العمل مهندس بارع في هذا الفن، وعقل لا يستهان به أو يقلل من قدرته على انتهاز الفرص للسرقة والخداع!!

إن المشكلة ليست في علامات بسيطة ينالها الطالب بهذه الصورة غير النظيفة إنما المشكلة تكمن في مثل تلك النفسية المعقدة التي لا ترى مانعا في أخذ ما ليس لها بحق!!

المشكلة في أن يتعود هؤلاء الطلاب على مثل هذه الأساليب.. المشكلة أن يرضى الإنسان أن ينال شيئا لا يستحقه، ويحصد ثمرة ليست له.. المشكلة أن يستمر السلوك الخاطئ والاستمرار يعني تكون العادة، والعادة لو تمكنت من صاحبها فإنها تستعبده إن كانت سيئة.

لذلك فإننا نقرع أجراس الخطر، وننادي كل من له قدرة على منع هذا السلوك السلبي قبل أن يستفحل لأن يتقدم وينقذ هؤلاء الشباب من أنفسهم فإن الرسوب خير من النجاح المخطوف!!

حوار في أروقة الجامعة

من طبيعة الحديث مع طالبات الجامعة أنه يحمل دائماً قيمة خاصة تتناسب مع حجم الدور الذي ينتظره المجتمع من جيل الشباب في المستقبل القريب.

كما أن حرارة كلماتهن من شأنها أن تشد انتباه السامع، وتجذبه إلى معانيها حيث الوضوح والصدق ودفء الحوار، إلى جانب الإحساس الشديد بالحاجة الماسة لمن يستمع إليهن ويتواصل مع أفكارهن واهتماماتهن.

عبر ثلاث ساعات قضيتها في المحاورة والاستماع إلى طالبات إحدى الجامعات الخاصة، ثبت أن هناك كماً من المشاعر المحبطة تكفي - إذا لم يحدث تصحيح لمظاهر الخلل التي استدعت تلك المشاعر - لرسم صورة ضبابية عن المستقبل في عيونهن من جهة، والشعور بالغبن وانعدام الحيلة أمام الأخطاء والسلبيات من جهة ثانية.

لقد توالت شهادات الطالبات الواحدة تلو الأخرى حول ازدواجية المعايير التي تعتمدها بعض الشخصيات الأكاديمية وتتخذها كطريقة من طرق الاتصال بطالبات الجامعة. ولعل من أبرز الشهادات الجامعية التي تؤكد على وجود هذه الازدواجية في

obeikandl.com

المعايير ما ورد على لسان إحدى الخريجات التي ضربت أمثلة عدة على انزعاج أكثر من أستاذ جامعي من تفوقها، وقدرتها على الإتيان بالجديد. وبدلاً من أن يسعدوا بوجود طالبة متفوقة بين صفوف الطالبات الجامعيات، استقبل بعض الأساتذة نبوغ هذه الطالبة بفتور شديد، سرعان ما تطور إلى عدائية واضحة حين نظروا إلى ذلك الاستعداد للتطور والتميز العلمي على أنه تحد مباشر لمكانتهم العلمية!!

فكيف تتفوق طالبة على أستاذها؟! وكيف تعرف شيئاً أو تصل إلى شيء لم يصل إليه؟!

وتختم الطالبة المغلوبة على أمرها شهادتها قائلة: كنت أتوقع تشجيعاً من أستاذي، وكنت أظن أني بتفوقي أقدم شهادة عملية على أنني أهل للثقة والتقدير!!

لكن ما حصل هو أنني أعاني الإهمال وأتعرض لضغوط نفسية شديدة بسبب إمكاناتي وتميزي.

والسؤال الصعب كيف يمكن تصور حدوث مثل هذا الأمر في مجتمع وثق بالتعليم ورأى فيه جسر الوصول لمستقبل أفضل؟

ولو لم أستمع لشكوى هذه الطالبة بنفسي بعد أن أنهيت محاضرة حول «طرق التدريس بين الفاعلية والتقليد» لتشككت في أن تتراجع أخلاقيات أستاذ جامعي إلى هذا المستوى المتواضع الذي

يرى من خلاله طالبته وكأنها أصبحت نداً له وخصماً يزاحمه ويريد أن يوقع به.

التساؤل المر التالي وصلني من زميلة لها عززت تجسيد الحالة الهلامية التي أصبح عليها بعض الأكاديميين حيث تساءلت عن وجه الصواب والخطأ في سلوك أستاذها قائلة:

ما تعليقك على موافقة أستاذ الجامعة بشأن إثبات حضور طالبة في كشف الحضور والغياب رغم أنها كانت متغيبة عن تلك المحاضرة؟ وما هو الرأي حول تجاوب الأستاذ الجامعي مع طلب إحدى الزميلات بمنحها درجة النجاح آخر الفصل رغم أنها تستحق الرسوب.. أترين ذلك غشاً؟!!

السؤال إجابته ليست عندي وإنما عند ذلك الأستاذ الذي فقد البوصلة ونسي أخلاقيات المهنة والالتزامات العلمية والأدبية لمن يدرس في صرح علمي بهذا المستوى!!

obeikandl.com

ظاهرة التصحر المعرفي

ماذا نفعل عندما تصبح بعض توجيهاتنا غير مفهومة لدى أفراد الجيل الجديد؟

وما نوع ردود أفعالنا حينما ينطبق عليهم قول الشاعر العربي:

سارت مشرقة وسرت مغرباً

شتان بين مشرق ومغرب

ما هو تأويلنا حين ندرك بعد فترة من الزمن أن صوتنا لا يصل إليهم، وأن سردنا الطويل وحديثنا الذي رددت أصداءه الأماكن التي جمعت بين جيلين معاً، لم ينتج عنه ما يبشر بإمكانية تحقيق مستقبل لجيل جديد استلمنا أمانة تعليمه وتدريبه وتأهيله وتزويده بمفاتيح النجاح؛ لتكون عدته إلى تحقيق مستقبله بطريقة تتحقق معها أهداف المجتمع؟!

الأقرب إلى الإنصاف والعدل أن نبادر إلى مراجعة الطرق التي نتعامل بها مع هذا الجيل، وأن نتهمها بأنها عقيمة وغير قادرة على بناء الإنسان، ولعل التجربة الحوارية التي كنت فيها شاهدة على تدني مخرجات التعليم، وضعف الشعور بالمسؤولية الفردية تجاه

obeikandl.com

تطوير وعي الطلاب تصلح لتقدم صورة مصغرة للمأساة التعليمية التي نعاني منها

في تلك التجربة الحوارية سألت الطالبات: ما علاقتكن بالصحف المحلية والخليجية والعربية، وبالتحديد ما صلتكن بالأعمدة اليومية والأسبوعية التي تحفل بها جميع الصحف المكتوبة بلغة الضاد؟!

علا القاعة صمت رهيب، وبدا أنني أسأل عن كيفية صناعة الصاروخ، وعن الطرق الجديدة التي سنتفوق بها على أميركا وروسيا في تكنولوجيا الفضاء!! انتظرت بضع دقائق على أمل أن تقف إحداهن لتذكر اسم كاتب علق في ذاكرتها أثناء تقليبها للصحف إن كانت ممن يعرف الطريق إليها، وممن يألف مطالعة العناوين الرئيسة والزوايا الثابتة للمطبوعات التي يربو عددها على المئات في وطننا العربي الكبير.

لكن خيبة الأمل ظلت هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن أصف به ردة الفعل التي شعرت بها نتيجة عزوف أجيالنا الجديدة عن المطالعة ولو من خلال نافذة تقليدية هي الصحيفة التي يفترض أن يكون تقليبها شيئا روتينيا لديهم!![*]

(*) ثمة دراستان حديثتان يمكن أن تساعدنا كل منهما على فهم التخلخل الواضح في الشخصية الطلابية الأولى في مصر والثانية في أميركا. نبهت الأولى والتي أجراها أستاذ التربية النوعية في جامعة الزقازيق شحتة حسني إلى خطر برامج الرسوم المتحركة المستوردة على تنشئة شخصية الطفل العربي وأكدت على =

obeikandl.com

ولأن التقصير المزمن يقود إلى مزيد من التفريط فقد جاءت الإجابة عن سؤالي حول أسماء عناوين بعض الكتب التي تطالعها هذه الفئة من الطالبات سريعة ومباشرة وعلى لسان إحداهن التي قالت بصوت مسموع: وهل هناك وقت لكي نقرأ؟!!

حقا لقد قطعت جهيزة قول كل خطيب!! وقطعت الفتاة الطريق أمام أي محاولة لاستكشاف مساحة العاطفة التي تجمع بينهن وبين مصادر التنمية الذاتية، الأمر الذي يستدعي أن نسأل المعلمات عن سبب هذا الفتور، وعن الأساليب القاصرة التي أدت بالطالبات إلى هذا الفهم المحدود؟!

= خطورة هذه البرامج والأفلام كونها تحتل حياة الطفل الذي يكون قد قضى نحو 22 ألف ساعة من وقته أمام التلفاز عندما يكمل دراسته الثانوية مقابل 11 ألف ساعة فقط في غرف الدراسة.

كما كشفت دراسة معمقة أجريت في مستشفى الأطفال والمركز الطبي الإقليمي في سياتل بالولايات المتحدة أن التلفاز قد يؤثر في نمو الدماغ عبر مستويات غير طبيعية من التحفيز، ما يعرضه لاضطراب في قدرته على التركيز وهو نمط دائم من التشتت الذهني وفرط النشاط الاندفاعي أو كليهما.

تشير الدراسة الخاصة بالأكاديمية الأميركية لطب الأطفال إلى الآثار السلبية للتلفزيون، الأمر الذي يجعل حياة الأطفال جامدة ومحدودة النشاط، قليلة الحركة، هذا إلى جانب كون معظم برامج التلفزة التي تبث في الوقت الراهن يهيمن عليها العنف و العداء والإباحية، فتكون أسوأ مثل للاقتداء به وينبه الإحصاء إلى أن الطفل الذي يشاهد التلفزيون بمعدل 3 ساعات يوميا سيكون قد شاهد قبل بلوغه 16 عاماً ما لا يقل عن 800 جريمة قتل و10,000 مشهد عنيف.

obeikandl.com

حين تمزق الكتب

تكلف طباعة الكتب المدرسية بالمؤسسات التعليمية الحكومية في دولة الإمارات كل عام أكثر من 17 مليون درهم، ثم يقوم بعض الطلبة بتصرفات غير مسؤولة تجاه كتبهم الدراسية، تتمثل في تقطيعها وإلقائها في سلة المهملات أو رميها على قارعة الطريق!!

وقد ترى بنفسك ـ أخي القارئ ـ وأنت تعبر أحد الشوارع العامة أكواما من أوراق كتب مدرسية تنتشر على الشارع الذي تقود فيه سيارتك، عبر أصحابها عن رغبتهم في التخلص منها بتلك الطريقة البدائية!!

هذا السلوك غير الحضاري لاشك، أنه انعكاس لوسط اجتماعي وعائلي ليس مؤهلاً لصناعة جيل متعلق بحبال العلم، ومشدود إلى عالم المعرفة!!

فيما لو كانت هناك جهود جماعية من أجل إنتاج نماذج طلابية أكثر وعيا والتزاماً وحبا للعلم لاختفت هذه الصور غير الحضارية من المشهد العام، ولسعدنا بصور مضيئة تحترم الكتاب، وتثمّن دوره في إيصالها إلى النجاح والسبق.

obeikandi.com

إن السبب في وجود علاقة بين الاتجاه الذي يمضي فيه المجتمع، وبين سلوك الطالب يرجع إلى كون الأخير يبني تصوراته واهتماماته على ما يتلقاه من مجتمعه المحيط ومن بيئته التي يتغذى بأفكارها، بل وتشكله وفق ذوقها ومزاجها.

فلو أخذنا على سبيل المثال الاتجاه السائد في الإعلام، والذي يشكل في هذه المرحلة أحد أهم مصادر التأثير في فكر المراهق، لوجدنا أن أداء هذه المؤسسات إزاء إعلاء قيمة العلم لدى الجمهور الذي من بينه فئة المراهقين ضعيف، إذ تنخفض بصورة ملحوظة نسبة البرامج الجيدة المقدمة على الشاشة المرئية، وفي الدوريات والصحف، بل على العكس هناك استلاب للعقول بهدف التطبيع مع مفاهيم سلبية تسهم في تشويه الشخصية وتضعف دافعية أصحابها نحو التعليم لصالح أمور أقل ما فيها أنها عديمة الفائدة.

من أجل أن تبقى جذوة العلم في نفوس الجيل مشتعلة، على مختلف الجهات أن تقوم بدورها في حماية تلك الشعلة، وعليها أن تكف عن محاولة إخمادها عبر الأدوار المضادة التي تمارسها بعض وسائل الإعلام، خاصة وأن عقارب الزمن لا ترحم، والوقت ليس في صالحنا على الإطلاق، فالعولمة لن يقف أمامها إلا أولئك الأنداد لها الذين يملكون مشروعا حضاريا تنمويا يثبتون به ذاتيتهم وتميزهم، وإلا فإن رياح التغيير سوف تجرف في طريقها -دون شك- تلك الجذور الواهية المتعلقة بغطاء خفيف من الرمل

والطحالب، حيث تكفيها جذبة واحدة لتقتلع من مكانها، ويصيبها الجفاف ثم تذبل وتموت!!

مشروع بناء نهضة الأمة يتطلب جهوداً مكثفة قادرة على البناء، وممتنعة عن الهدم.

obeikandl.com

نهاية كان يمكن تغييرها

بلغ مجموع الطلبة المحرومين من التقدم لامتحانات الثانوية العامة بفروعها العلمي والأدبي والفني ومن المدارس العامة والخاصة 46 طالبا وطالبة عام 2003م بدولة الإمارات العربية المتحدة.

من يقرأ هذا الرقم قد يحمد الله في سريرته أو في العلن على ضآلة عدد الفئة المستحقة للحرمان ذلك العام، وقد يرى أن ليس ثمة ما يدعو إلى التخوف أو الحذر فيما يتصل بواقع التعليم في المجتمع.

قد يبدو الرقم ضئيلاً نسبياً، غير أن موضوع تسرب الطلاب من المدارس، وانصرافهم عن الالتزام بواجباتهم تجاه التعليم موضوع شائك، وله حضوره وأهميته التي تستدعي أن يتنادى لها المعنيون بشأن التربية والتعليم.

ومع التسليم بوجود شريحة طلابية في أغلب المجتمعات تنخفض لديها الدافعية للتعلم، وتصل علاقتها بالمؤسسة التعليمية إلى طريق مسدود؛ مما يستدعي تطبيق لوائح الحرمان من دخول الثانوية العامة على هذه الفئة من الطلبة والطالبات، إلا أن قبول مثل هذه النتيجة والاستسلام لها كأمر طبيعي، وكواقع محتوم شيء

obeikandl.com

يقتضي التريث والمراجعة وإعادة الحسابات في موضوع له انعكاساته ونتائجه على مستقبل الطلبة وعلى صورة المجتمع.

فلو تساءلنا عن مصير هؤلاء الطلاب البالغ عددهم ستا وأربعين طالبا وهل سيستأنفون دراستهم في السنة التالية ويعاودون الكرة من جديد أم ستنقطع صلتهم بالدراسة إلى الأبد، فلا شك أننا لن نحظى بجواب لدى كافة المسؤولين إذ لا يوجد لدى الوزارة كشف نوايا لسلوك الطلاب المحرومين من الثانوية العامة. وهو رد معقول ومقبول وبموجبه سنسحب السؤال الذي طرحناه على الوزارة لنطرحه على أولياء الأمور فنسألهم عن مصير العلاقة الباردة التي تجمع بين أبنائهم وبين مدارسهم. وهل يرجى لها الترميم وإعادة البناء بعد هذا الضعف والتدهور الذي آلت إليه. قد لا يكون الجواب حاضراً كذلك لدى أولياء الأمور الذين قد يتساءلون بدورهم عن مستقبل أبنائهم، وهل سينصلح حالهم ويستفيدون من تجربة الحرمان، أم أنهم سيلجؤون للاستمرار في الدور نفسه الذي مارسوه تلك السنة دون أن يكترثوا بمخاوف الآباء والأمهات.

وإذا كان استشراف النوايا أمراً صعباً وغير ميسور، وإذا كانت معرفة الغيب الذي يأتي بعد شهور غير متيسرة فماذا عن معرفة أسباب توتر العلاقة بين الطلبة وبين مدارسهم؟ هل ثمة حصر واستقصاء للوقوف على أسباب هذه الظاهرة؟ أم ليس هناك داع لتوجيه مثل هذا السؤال؟!

للإضاءة على الإجابة أشير إلى التجربة الفريدة التي تعتمدها بعض الشركات الغربية مع موظفيها الذين اختاروا الاستقالة وآثروا اللحاق بجهة عمل أخرى.

تتمثل هذه التجربة الرائدة في أن بعض الشركات المتطورة ذات السمعة الجيدة، تقوم بتوظيف أشخاص يقتصر دورهم على إجراء مقابلات مع الموظفين المستقيلين؛ للتعرف على أسباب استقالتهم والظروف الحقيقية التي أدت بهم إلى الانسحاب من العمل، بهدف اكتشاف الخلل أو الضعف الذي قد يكون مستتراً وغائباً عن إدارة المؤسسة، والذي لو استمر فسوف يؤدي إلى انخفاض مستوى الخدمة الجماهيرية، وهو الأمر الذي تحذر منه كل مؤسسة تريد البقاء والريادة، وتخشى من الوقوع في الأخطاء والعيوب.

واستفادة من تجربة المؤسسات الغربية في استقصاء أسباب الخلل كان بالإمكان إجراء استفتاء مشابه، واستطلاع مبكر على الظروف التي تدفع بهؤلاء الطلبة إلى مثل هذه السلوكيات التي جرّت عليهم الحرمان من دخول الامتحان، إذ ليس هناك شك بأن التخطيط الوقائي كان سيسهم في تعديل الصورة لو نال حظه من العناية والتطبيق.

✎ ~ ~ ~

obeikandl.com

المجتمع التحصيلي

من أجل الخروج من إطار «المجتمع التحصيلي» الذي تبنته أغلب مؤسسات التعليم في العالم العربي منذ إنشائها وإلى اليوم إلى وضع أفضل يكون فيه جميع الطلاب شركاء حقيقيين في تحمل مسؤولياتهم الوطنية، وأدوارهم المنتظرة، ينبغي تغيير السياسات التشريعية التي أسست النظام التعليمي السائد دون أن يلتفت إلى خطورة مثل هذه المنطلقات على مستقبل الأجيال القادمة.

والمجتمع التحصيلي هو الذي يقيس إمكانات الطالب العقلية بالدرجات التي يحوز عليها في المواد الدراسية، ويتجاهل الطلبة ذوي التحصيل الدراسي الأقل، وكأنهم عبء لا يمكن استثماره أو الثقة به.

إن النظرة الضيقة التي نظر بها مسيسو العملية التعليمية للطلبة والطالبات، والتصنيفات غير الفاعلة التي صنفوا أفراد هذه الفئة تبعا لها نتج عنها هدر حقيقي في الثروة البشرية التي عوملت على أنها مورد محدود الإمكانات، في حين أن إمكاناتها تجل عن الحصر.

لقد غاب عن وعي من في الميدان التربوي أن كافة الطلاب أصبحوا- بحكم السياسة التعليمة التلقينية - «جهة تنفيذية»

لا أكثر حيث أبعدوا عن المشاركة في الخطط واللوائح التي يطالبون بالالتزام بها، مع العلم أن معظم الطلاب يجهلون تلك اللوائح التي قد يحاسبون عليها بعد ذلك!!(*)

ومن الغريب حقاً أن يطالب «المجتمع التحصيلي» الذي غدا «جهة تنفيذية» بأن يدير شؤونه العلمية، ومواقفه السلوكية في المدرسة على أكفأ وجه، في حين أن المشاركة أصبحت هي القضية الغائبة المحكوم عليها بالطرد والإبعاد، حيث لم تتوافر مساحة قبول نفسي لتصور حدوثها في داخل المؤسسة المدرسية!!(**)

(*) يرى الكاتب إبراهيم البليهي أن التفوق المدرسي ليس دليلاً على الذكاء ولا على القدرة المعرفية، وإنما هو استظهار مؤقت وبالمقابل يقوم شاهدا قويا على أن الإخفاق المدرسي لا يدل على كلال العقل وإنما يدل على غياب الرغبة وفقدان الاهتمام، كما أن التفوق المشهود عند محمد أسد في الأداء اللغوي رغم كرهه لقواعد اللغة يؤكد التغاير النوعي بين المعلومات ومهارات الأداء فتحصيل المعلومات المدرسية شأنٌ عام يشترك فيه كل الدارسين، أما المعرفة والمهارة فهي شأنٌ خاص ينفرد به كل فرد بعتاده الذاتي، فيحصل أحدهم على الدرجة الكبرى في مادة النحو ولكنه يلحن لحناً شنيعاً ولا يكاد ينطق نُطقاً صحيحاً، وآخر لا يطيق حفظ القواعد لكنه يكتب بفصاحة دون خطأ ويتحدث بطلاقة من غير لحن، وآخر يحصل على أعلى الدرجات في مادة البلاغة لكنه لا يجيد كتابة سطرين وهذه حالات شائعة ومشاهدة ومعروفة وينطبق هذا الحكم على كل المجالات العلمية والعملية، وقد فطن لهذا ابن خلدون وأكد عليه مراراً في المقدمة... مقال (محمد أسد مفكر لم ينل حقه من الدراسة) إبراهيم البليهي - جريدة الرياض الأحد 30 رجب 1426هـ - 4 سبتمبر 2005م - العدد 13586
http://www.alriyadh.com/2005/09/04/article91856.html

(**) إن هذه الحقائق عن التعليم والتعلُّم ودور الرغبة الذاتية وأهمية انبعاث الاهتمام من داخل النفس وضآلة قيمة الاهتمام الاضطراري في تكوين اتجاهات الإنسان وفي بناء قدراته إن هذه كلها ينبغي أن تكون مفهومة للجميع ليتعاملوا مع التعلُّم =

لقد كان الأجدر بالتربويين أن يعلموا أن مشاركة الطلاب في صناعة القرار من شأنه أن يرفع مستوى التفاعل بين الطالب والمدرسة، كما أنه قادر على حماية الطلاب والطالبات من مشكلات تفوق الحصر، من أبرزها التسرب الدراسي، ضعف الانتماء للمجتمع المدرسي، الإحساس بضآلة الذات، أو الشعور بعدم القدرة على الإنجاز، إلى جانب الرغبة في إيجاد بدائل أخرى خارج إطار المدرسة يفرغون فيها طاقتهم المكبوتة التي عجز المناخ التعليمي عن توظيفها بشكل فاعل.

تتفق أغلب الدراسات التربوية على أن الإهانة والسخرية التي يوجهها المدرسون للطلبة الراسبين وأشباههم من ضعفاء التحصيل العلمي تحتل المرتبة الأولى في قائمة الأسباب التي تؤدي إلى ممارسة العنف، وفي الحالات الأكثر تعقيداً يرتفع مستوى استخدام العنف إلى وضع شديد القتامة، حيث أدى القهر الناتج عن

= والمعلمين والمتعلمين بموضوعية وواقعية لا تبخس أحداً حقه لكن لا تنفخ ضموره ولا تضعه فوق مستواه، إن هذه الواقعية في تقويم الشهادات الدراسية سوف تضطر الدارسين إلى أن يكون همهم تحصيل المعرفة وليس الحصول على الشهادة، فيتكوَّن فيهم الاهتمام الذاتي ويبقون رغم إلحاحهم على المعرفة شاعرين بقصورهم فيستمرون في بناء ذواتهم وتوسيع معارفهم ويكونون واقعيين في تقويم تأهيلهم النظري، فيدركون أن مجالات الأداء تختلف عن مجالات المعلومات فيحرصون على اكتساب المهارات التي يحتاجها مجتمعهم وتتطلبها حياتهم... إبراهيم البليهي (محمد أسد مفكر لم ينل حقه من الدراسة) -جريدة الرياض ا لاحد 30 رجب 1426هـ - 4 سبتمبر 2005م - العدد 13586
http://www.alriyadh.com/2005/09/04/article91856.html

الاستهزاء إلى انتحار تسعة طلاب دون الرابعة عشرة من العمر في إحدى الدول الآسيوية العام 1985 كان أحدهم فتى هادئاً وديعاً!!

وفي إحدى الدول العربية أدى لجوء المعلمة الدائم إلى العنف اللفظي ضد إحدى الطالبات، ومداومتها على الاستهزاء بها والسخرية منها إلى أن تنفجر الصغيرة ابنة الإحدى عشرة سنة في وجه المعلمة وتكيل لها شتى أنواع السباب والشتائم، ثم تجري هاربة نحو النافذة، لتلقي بنفسها من الطابق الثالث وتسقط جثة هامدة، ما يُعَدُّ شاهداً جديداً على فداحة الجرم الذي يمارسه بعض المدرسين إزاء الطلاب وكأنهم حمى مستباح ينتهكه كل مستخف بكرامة الإنسان!!

إن استمرار المراوحة في دائرة المجتمع التحصيلي سيحرم المجتمع من أزهار ورياحين كان يمكن أن تتفتح... فقط لو وجدت السبيل إلى ذلك كما أنه أدى إلى انتهاكات حقيقية في منظومة البناء التربوي تجرع مرارتها أجيال تتلوها أجيال.

obeikandi.com

مفهوم الأمية في عيون العالم

في الثامن من سبتمبر من كل عام يحتفل العالم باليوم العالمي لمحو الأمية، وفيه يجدد العالم مشاعره الجميلة تجاه التعليم وأمنياته المعهودة في نشر المعرفة في شتى أصقاع المعمورة.

في هذا اليوم تتبارى المؤسسات التعليمية في شتى أقطار الأرض للحديث عن إنجازاتها في هذا الميدان الذي لا غنى للأحياء عنه، كما أنه لا مناص لأي أمة حتى ولو كانت تسير سير السلحفاة من أن تنال الحد الأدنى منه، حتى ولو كان هذا الحد لا يتجاوز الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة!!

الأمية لدى شعوب الدول النامية ليست هي ذاتها لدى الغرب، كما أن شعب اليابان ينظر للأمية بمنظار مختلف.

فالأمية تعني الجهل بالقراءة والكتابة، ومحو الأمية يعني إزالة هذا الجهل عن عقل الإنسان.

أما لدى الغرب، فالأمية اليوم هي الأمية الوظيفية، حيث تعاني أعداد هائلة من الموظفين من مشكلة العجز عن تلبية متطلبات سوق العمل والذي يشترط أداء مهنياً عالياً، وسرعة متناهية في مواكبة الطفرة التكنولوجية الهائلة.

obeikandl.com

أما اليابانيون فالأمية لديهم تعني العجز عن استخدام الحاسوب، وقد تخلصوا من وطأة هذا العبء الاجتماعي منذ زمن، ولم يعد هناك طفل ياباني أو طفلة يابانية ناهيك عن الشباب والراشدين يعاني من الجهل باستخدام الحاسوب!!

إذا عدنا لعالمنا العربي، واستنطقنا الأرقام لترشدنا إلى حقيقة الجهود المبذولة في إطار القضاء على الجهل، وإحلال المعرفة فسوف نجد أن هناك نمواً ملحوظاً في هذا المجال ولكنه دون مستوى الطموح والآمال!! فقد انخفضت نسبة الأمية من 60٪ في عام 1980 إلى حوالي 43٪ في منتصف التسعينيات. كما تضاعف معدل تعليم المرأة ثلاث مرات منذ عام 1970م. وعلى الرغم من كل هذا النمو فمازال هناك 65 مليون عربي بالغ أميا، ثلثاهم من النساء، وليس متوقعا أن تحل هذه المعضلة قبل ربع قرن على الأقل.

كما يوجد على امتداد الخارطة الجغرافية للوطن العربي عشرة ملايين طفل بين سن 6 و15 سنة خارج النظام التعليمي.

ولعل من أبرز التحديات التي تواجه مستقبل التنمية البشرية في مجال التعليم هو هذا التعثر الملحوظ في مجال الالتحاق بالتعليم العالي الذي يُعد مرتكز وحجر زاوية مستقبل أي كيان سياسي يريد أن يملأ فضاء الكرة الأرضية، ويستحوذ على مكان بارز فيها بين شعوب العالم المتمدن.

نسبة التعليم العالي لدينا محدودة ولا تتجاوز 13٪، وهي نسبة مازالت أدنى بكثير من النسب السائدة في الدول الصناعية التي تصل إلى 60٪.

كما أن من الصعوبة بمكان أن تظل الخدمة التعليمية المتميزة حكراً على الموسرين الذين يملكون نفقات التعليم العالي، بينما يحرم الفقراء، ومتوسطو الدخل من مواكبة المطالب المادية، التي تقف عائقاً في طريق إكمال أبنائهم لدراساتهم العليا.

من الاتجاهات المقترحة لتعديل البنية التحتية للمعرفة العامة لدى جمهور الشعب العربي البالغ عدده 280 مليون نسمة، هو أن تطال مدة التعليم الإلزامي السنوات العشر الأولى على الأقل بدلا من السنوات الست المعروفة على نطاق الدول العربية.

ولو التفتنا لحظة من الزمن إلى هذا المارد الكبير الذي يسمونه العولمة، وركزنا قليلا على مسألة جوهرية مفادها أن البقاء للأقوى، وأن الجولة التالية ستكون من نصيب الذين ينظمون أنفسهم، ويحسنون ترتيب أوراقهم، وقبلها يحسنون إدارة أولوياتهم ويتجاوبون معها، فسوف يظهر لدينا أن عقارب الساعة هي بدورها تتحدانا، وتحرضنا على الحركة والفاعلية.

ثمة ومضة مشرقة علينا أن نضيئها في سمائنا، تتمثل في مليون عربي مهاجر إلى العالم المتمدن لديهم خبرات علمية ينبغي أن توضع في الحسبان، و يتم تجسير العلاقة بينهم وبين وطنهم

الأم، من أجل استثمار جزء من جهودهم المتميزة في رفد الحركة العلمية لدينا.

فهل ثمة أمل في طرق هذا الباب، أم أنه موصد كغيره من الأبواب؟!

obeikandl.com

مشروعات لم تولد بعد

تمثل الأمية في العالم العربي أحد التحديات الخطيرة التي تواجه مشروع التنمية القومية الشاملة، لما يترتب عليها من آثار مباشرة وغير مباشرة على حاضر ومستقبل المنطقة بأسرها.

ولقد ودع العالم العربي الألفية الثانية، واستهل الألفية الثالثة وهو يحتفظ برصيد من الأمية بلغ مقداره «65 مليون أمي»، كإرث تخطى الزمن ليشهد على قوة التحديات التي من شأنها أن تستفز العقل العربي، وتضعه مباشرة أمام مسؤولياته فيقترح الحلول التي تسحب من رصيد الجهل، وتسهم في تحرير الإنسان من ضيق الأمية إلى رحاب المعرفة والعلم.

ولأن تنمية الموارد البشرية هي الطريق التي تمهد للتنمية القومية الشاملة، فإن بذل الجهود الحثيثة والمستدامة لتحرير هذه الملايين من قسوة الأمية وظلالها المعتمة هو واجب أخلاقي وقومي في المقام الأول.

تشير الإحصاءات الرسمية الصادرة من اليونسكو إلى أن أكثر من 50٪ من العرب ممن هم فوق الخامسة عشرة أميون، وتزداد النسبة بين النساء إذ تقدر بحوالي 70٪ كما ترتفع في المناطق الريفية.

obeikandl.com

يمثل الفقر مقبرة العلم في العديد من الدول العربية التي ينخفض فيها دخل الفرد عن المعدلات الطبيعية، ويصل إلى حالة تنهك طاقة الإنسان وتجعله لا يكتفي ببحثه المحموم عن لقمة العيش، بل يلجأ إلى حرمان أبنائه من الدراسة الابتدائية وتعويدهم على ممارسة مهن بسيطة قد تدر على العائلة بعض الأرباح.

إن هذا الواقع الذي يبرزه تقدير اليونسكو مطلع الألفية الثالثة يتطلب دون شك أن تنضم الجهود الشعبية إلى الجهود الرسمية لمعالجة مشكلة الأمية، وتقليص مساحتها ما أمكن.

وهنا يحق لنا التساؤل عن دور المنظمات الأهلية،وعن برامجها في علاج مشكلة الأمية، وعن دور الأفراد الذين يمتلكون مهارة القراءة والكتابة في تبديد مساحة الظلام من أفق الحياة الاجتماعية؟

وعن دور الجامعيين الذين تيسرت لهم فرص التعليم، وذاقوا حلاوة المعرفة هل أدوا زكاة علمهم، وماذا أسدوا لآبائهم وأمهاتهم ممن حرموا نعمة القراءة والكتابة؟ وعن دور الإعلام في تعليم من لا يعلم؟

نتساءل عن دور المعلمين خارج الدوام الرسمي ماذا عملوا لأولئك المحرومين من هذه النعمة؟ نتساءل عن ساعات الفراغ المهدرة دون حساب أو حد أين ذهبت، وفي أي شيء صرفت؟ وهناك 65 مليون أمي لا يجدون من يعلمهم أبجديات الدخول إلى

عالم النور والوعي، حيث يكتشفون العالم من خلال الرؤية الأعمق التي توفرها الثقافة والبحث؟

كما نتساءل عن حجم الأموال المهدرة في غير طائل والتي لو صرف عشر معشارها لاختفى الجهل من عالمنا، ولاختفت كثير من السلوكيات الضارة بواقع ومستقبل المجتمعات والتي مصدرها الابتعاد عن مصادر التنوير والبناء؟

وعن سبب الركود الذهني الذي خيم على مشاعر المتعلمين، وأنساهم واجبهم تجاه أوطانهم ومنهم من يتغنى بحب الوطن دون أن يعلم أن أول علامة على ذلك الحب هي أن تسوق الخير إلى المحتاجين من قومك، فتهدي الشارد منهم، وتعيد الغائب عن ذاكرة قومه إلى عالم النور واليقين، وتعلم من لا يعلم؟

وأخيرا عن الأهداف العليا هل لها مكان في خرائط العقول، ولماذا رضي أصحابها أن يتحولوا إلى الموقف الأضعف الذي لا يدل على حياة كاملة إنما يؤكد على أنهم باتوا في الحلقة الأضعف؟!!

obeikandl.com

آباء... يصدرون العنف

تتفق النظريات المختلفة على تعريف العنف: بأنه كل تصرف يؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين سواء أكان أذى جسميا أم أذى نفسياً. فالسخرية والاستهزاء من الفرد، وفرض الآراء بالقوة، وإسماع الكلمات الجارحة جميعها أشكال مختلفة للعنف(*).

وظاهرة العنف تعد إحدى الظواهر التي استحوذت على اهتمام علماء النفس في القرن العشرين، واجتهدوا في تتبع أسبابها، واكتشاف العوامل المؤدية إلى تفاقمها، بعد أن أصبح اللجوء إلى استخدام العنف أمراً عادياً يمارسه الأفراد ضد بعضهم البعض متى ما رغبوا في توصيل رسالة قاسية إلى أحد الأشخاص، أو من خلال ردود أفعالهم التي تأتي مصحوبة بشحنة من المشاعر الغاضبة والملتهبة متى ما وجدوا لها مثيرا

وحسب النظرية النفسية ـ الاجتماعية فإن الإنسان يكون عنيفا عندما يوجد في مجتمع يعتبر العنف سلوكاً ممكناً مسموحاً به ومتفقاً عليه.

(*) الإساءة ... مظاهرها ... أشكالها ..... أثرها على الطفل / ليلى الصايغ
www.amanjordan.org

obeikandl.com

والطفل لا يولد عنيفاً، وإنما عنف الظروف المحيطة به، وقسوة ابويه، والخلل في البيئة الاجتماعية تقوده في النهاية إلى أن يكون عنيفاً!!

يعتبر العنف المتبادل بين الأبوين المسؤول الأول عن تكوين الشخصية العنيفة وتحديد ملامحها؛ تبعا لمستوى العنف القائم في الأسرة.

والحماية الفعلية للابن من اعتماد العنف كوسيلة وحيدة لفض النزاع تبدأ من الموقف النقدي الذي يتخذه الأبوان من سلوكهما إزاء الاختلافات في وجهات النظر، لكن ذلك لا يحدث -عادة- لدى الأسر المحتقنة والتي ألفت إدارة خلافاتها بأشكال مختلفة من العنف، الأمر الذي يجعلنا نستبعد وجود فرص حقيقية للتنشئة الصحيحة في مثل هذه الأجواء عالية التوتر وشديدة الاحتقان؟!

فكيف يمكن أن ينشأ أطفال يتمتعون بدرجة من النضج الانفعالي، ومن القدرة على السيطرة على المشاعر، وضبط النفس، وآباؤهم وأمهاتهم هم أول من يصدر العنف، ويديره ويعتمد عليه كلغة أولى في التعبير عن وجهة النظر أو في الدفاع عنها!!

لعل أقرب مثال على صحة الدعوى التي نرفعها ردود أفعال الأب الذي ألف اللجوء للعنف، إزاء شكوى أحد أبنائه من اعتداء زميله عليه.

obeikandl.com

ففي الأنماط الأسرية التي يمثلها آباء محتقنون يتم توجيه لوم قاس للطفل الشاكي؛ لكونه عجز عن رد الصاع صاعين وتلقين زميله المعتدي درسا في الانتقام لن ينساه مدى الحياة!!

لا جدال إزاء الدعوة لاستنساخ العنف خارج سياج الأسرة في توقع تورط الابن بتبني خيار العنف كحل أمثل للحد من أزماته النفسية ومشكلاته العارضة التي يصطنعها جماعة الرفاق والأقران.

ومع مرور الوقت يفقد هذا الناشئ الصغير القدرة على اتخاذ القرار السليم، طالما ظل أسير انفعالاته وتصوراته المحدودة للكيفية التي يدير بها المواقف الصعبة، إضافة إلى أن مثل هذا النوع من الأبناء يواجهون صعوبة في تكوين علاقات عميقة وثرية نظراً لمحدودية أدوات التأثير، وطرق الاتصال التي يتعاطونها مع دائرة الزملاء والأقران.

إن هذه الإخفاقات المتتالية في شبكة العلاقات الاجتماعية ما هي إلا محصلة حتمية لفشل الآباء في إقصاء العنف من داخل الأسرة.

obeikandl.com

ازرع خوفا... تحصد فشلاً

ما الفرق بين العاطفة الذكية والعاطفة العمياء؟ وما الفرق بين العاطفة المسؤولة والعاطفة غير المنضبطة التي تنطلق من عقالها إلى غير هدف واضح، وتدفع صاحبها ليمارس أعمالاً قد يندم عليها في المستقبل؟

وكيف يمكن توظيف العواطف لتعطي نتائج إيجابية على المستوى الأسري والاجتماعي؟

وإذا كان النموذج السلوكي هو الأكثر قدرة على اقناع الأبناء بإمكانية تكرار السلوك الجيد، فما الأسلوب الأمثل للتعبير السلوكي عن القدرة الخلاقة للعاطفة الذكية في إنعاش العلاقات الإنسانية، وتقوية الصلة بين الفرد وبين المحيطين به الذين تجمعهم به رابطة نسب أو صداقة أو اهتمامات مشتركة؟

من غير شك أن العاطفة الأبوية هي من أسمى العواطف الإنسانية التي أودعها الخالق في نفوس البشر، وقد جعل منها أحد المصادر الكبرى التي تهيئ للإنسان الانسجام مع أدواره الأسرية في القيادة والتربية، بل وتدفعه لتجويد خياراته للوسائل التي يستخدمها في التوجيه.

obeikandl.com

يشير استقراء التجارب التربوية إلى أن مستوى التعبير عن العاطفة الأبوية لا يكفي لدعم نفسيات الأطفال والمراهقين أو لإيجاد مناخ إيجابي فاعل في محيط الأسرة.

ففي حين يطغى صوت العاطفة على صوت العقل في بعض التجارب الأسرية نلاحظ تفريطاً في التجارب الأخرى التي يوصف سلوك أبنائها بعدم القدرة على التكيف الاجتماعي السليم، وعدم القدرة على التعبير عن الذات والآراء الخاصة، والسبب يرجع إلى نوعية إدارة العلاقات داخل الأسرة والتي تتميز بالرسمية الشديدة الشبيهة بمؤسسة عمل يديرها شخص صارم تبدو على ملامحه الجدية التامة، ولديه قناعة بأن المرونة ستؤدي إلى الإخلال بالنظام العام وأن إظهار العواطف سيؤدي لتمييع الأشخاص الذين يتعامل معهم ويوجد لهم الرغبة في التفلت من النظام.

ينظر لمن حوله بعين الريبة والشك، فهم متهمون حتى يحدث العكس، ومقصرون حتى تشهد لهم أعمالهم بغير ذلك(*).

نعتهم بالتقصير أحب إليه من نعتهم بالاجتهاد والحرص على تجويد الأعمال.

لا مكان لديه للأعذار ولا رغبة لديه لسماع التبريرات، الشيء الوحيد الذي يستثير إعجابه إظهار المزيد من الخضوع له،

(*) للتوسع مجلة الخدمة الاجتماعية / تمحيص في إشكالية العنف المنزلي
www.swmsa.com

obeikandl.com

وإعلان الطاعة العمياء التي لا يصاحبها أي نوع من النقاش وإبداء الرأي.

وإن شئت ـ أخي القارئ ـ أن تستزيد علماً بحال الآباء من نوع هذا المسؤول المتزمت فإليك رأي إحدى خريجات الجامعة التي تقول: نربى في بيوتنا وفق مبدأ «نفِّذ ثم ناقش» فإذا ما أظهرنا الاحتجاج بناتاً أو أولاداً على هذا المبدأ فإننا مهددون بإلحاق نعت العقوق بنا لكوننا عبرنا عن حاجتنا للفهم والإدراك.

تقول الطالبة: نقول لأهلنا في البيوت، فقط نريد مناقشة ما تطلبون منا، فيجيبوننا: نعم، ولكن بعد التنفيذ!!

الأمر المؤكد في هذه المسألة أن هؤلاء الآباء غاب عن علمهم أن التنفيذ دون حماس وقناعة سيكون تنفيذاً باهتاً ضعيفاً لا وزن له ولا أثر.

كما فاتهم أن يدركوا أن التربية على الطاعة العمياء هي المسؤول الأول عن إنتاج الشخصيات الضعيفة غير الواثقة بنفسها، والتي ليس لديها القدرة على تكوين الآراء الخاصة بها لأنها لم تتعود على التفكير والنظر، إنما تعودت على أخذ الأمور كما هي، وكأنها نصوص مقدسة، أو أوامر فوقية لا يمكن نقاشها أو الاعتراض عليها.

إن الباعث على الطاعة العمياء هو الخوف وحده وليس شيئاً آخر، والنتيجة دون شك لن يتولد عنها عباقرة ولا عظماء.

obeikandl.com

كلا.. إن نتيجة هذه التربية الكسيحة أشخاص بائسون تخرجوا من مدرسة الخوف والقلق وليس لديهم قدرة على مواجهة صعوبات الحياة وتحدياتها.

لذلك نقول لكل أب وأم ربوا أبناءهم على الطاعة غير المبصرة، لا ترفعوا كثيرا من سقف توقعاتكم لأن المستقبل سيكشف لكم أن قوة الأخلاق تنبع من قوة الاقتناع وليس العكس كما كنتم تأملون!!

الشخصية الضعيفة... ثمرة التربية على الطاعة العمياء

كيف يمكن أن تصوغ الأسر أبناءها صياغة تتناسب مع أهداف التربية الشاملة بينما تعتمد التربية التي يتلقاها الفرد على تحييد عقله عن التفكير في المهمات التي يطالب بتنفيذها، إلى جانب تنحية لغة الحوار وتبادل الآراء، والتخلي عن تكوين قناعات داخلية في نفسية الأبناء للأوامر والتوجيهات التي تصدر من الأبوين.

ولأن المقدمات الخطأ تؤدي بطبيعتها إلى نتائج خطأ، فإنه من غير الممكن أن يؤدي العقم في الأساليب التربوية والعجز عن تنشيط خلايا التفكير لدى الناشئة إلى تكوين شخصيات تثق بنفسها، وتجيد الدفاع عن قناعاتها حتى الرمق الأخير.

الغريب أن الأسر التي تعتمد مفهوم الطاعة العمياء كإحدى الوسائل التربوية التي تثق بها يغيب عنها أنها تهزم بتلك الوسيلة الضعيفة الأبناء من الداخل، وتعودهم على تعطيل ملكاتهم الفطرية

obeikandl.com

في الإجابة عن مختلف الأسئلة التي يبحث لها العقل عن إجابة شافية، كما تصيبهم بحالة من عدم المبالاة في معرفة ماهية الافكار التي يتداولها الناس ومدى صلاحيتها للقبول والتطبيق.

إن واقع الأسرة الذي لا يفتح مجالاً للحوار والأخذ والرد سيؤدي إلى حرمان الأبناء من وجود بيئة إيجابية واعدة تحفزهم على التفاعل مع الأفكار المختلفة، وتدربهم على ممارسة البحث عن أرضية مشتركة في الحوار كما تعودهم على احترام الرأي الآخر، والوقوف بجانب الحق دون أن يكون للنفس أو الحظوظ الشخصية مكان.

إن الشيئ المتوقع حدوثه هو ألا يعتني أفراد هذه الأسرة بالمنهجية في التفكير، أو بمناقشة أفكارهم وآرائهم الخاصة ناهيك عن القبول بسماع الرأي الآخر، وإفساح المجال له ليدلي بما لديه.

فمثل هؤلاء الأفراد تنخفض قدرتهم على استيعاب المخالفين لهم في التوجهات والاهتمامات، وتتميز لغتهم بالصرامة والحدة في التعامل مع الناس. والسبب خلو الأساليب التربوية التي مورست عليهم في الصغر من اعتماد لغة الحوار المفتوح وتقديم نماذج سلوكية في احترام كافة الأفكار والآراء.

فالأب الذي عاني من الحرمان العاطفي صغيرا يتسم سلوكه العام -في أحيان كثيرة- بالخشونة، من ذلك أن دخوله للبيت يتسبب عادة في إحداث شلل مؤقت في نشاط أبنائه فالمستلقي

على الأريكة يجلس بمجرد سماع صوت سيارة الأب، والذي يلعب يكف عن اللعب ويبحث عن مكان هادئ لينزوي فيه ويلجأ للصمت غير الجميل حتى يغادر أبوه المكان!! ومن كان يتحدث في الهاتف يقرر إنهاء مكالمته فور رؤيته له، ومن كان يمارس هواية ما فإنه يستبدل تلك الهواية بكتاب مدرسي يخطفه على عجل من حقيبة المدرسة ليظهر للوالد أنه ممتثل للقوانين الداخلية التي أصدرها!!

والسؤال الذي يفرض نفسه: أو تخرج مثل هذه التربية المتعسفة العظماء والقادة والشخصيات الطموحة المتحفزة للنجاح، والمتهيئة لدفع الضريبة المطلوبة لتميزها وبلوغ أهدافها؟!

وهل يمكن لقلب احتضن الخوف عشرين عاماً أو يزيد أن يحول صاحبه في مرحلة تالية إلى شخص جسور ومقدام؟

إن المقدمات الصحيحة وحدها هي التي تقود إلى النتائج الصحيحة.

وما كان مؤسساً على الهجوم والنقد السلبي واللغة الفوقية المتسيدة فإنه لن ينتج إلا نجاحاً وهمياً ينهار من الاختبار الأول، ويتلاشى أمام تحديات الحياة

✎ ~ ~ ~

مفاهيم يجب أن تصحح

في لقاء تسجيلي مع أحد الأطباء النفسيين تناول فيه موضوع «السلوكيات الإيجابية في التعامل مع الأطفال» أشار الطبيب النفسي إلى دور التأديب في توجيه الطفل للكف عن السلوك السلبي واعتماد السلوك الإيجابي في تصرفاته وأقواله.

اللافت للنظر في هذا الحوار القيّم ردة فعل مقدم البرنامج على كلام الضيف، فهو ما كاد يسمع كلمة تأديب حتى تداعت إلى مخيلته صورة السوط أو اليد وهي تهوي على جسد طفل أو مراهق بدر منه ما يثير الغضب ويستدعي التأديب.

ولم يكد الطبيب الضيف ينهي كلامه في هذا الجانب حتى بادره مقدم البرنامج قائلا: ولكن حينما أضرب ابني لكي أؤدبه أتساءل في نفسي عن الإشارات الدالة على أن الضرب قد أدى النتيجة المطلوبة.

وهنا أدرك الطبيب أن محاوره لديه ضعف في تصور ماهيّة التأديب، وطرق ووسائل الارتقاء بفنون التربية لإيصال الطفل والمراهق إلى مستوى من الالتزام السلوكي والأخلاقي

obeikandl.com

والتكيف مع البيئة الاجتماعية بدرجة تتناسب مع طموحات الآباء والمربين.

فجاء جوابه على النحو التالي: ومن قال لك إن التأديب يعني الضرب؟!

ومن الذي يؤيد ممارسة العنف اللفظي أو السلوكي أثناء تربية الأطفال؟!

إن التأديب الذي ينادي به التربويون هو نوع من الرسائل المباشرة التي تؤكد وجود «الحزم التربوي» دون الحاجة إلى إنزال الضرب بالطفل الذي بدر منه نوع من الخطأ أو التقصير.

والحزم التربوي هو إحدى الاستراتيجيات الفاعلة التي تهدف إلى إشعار الطفل بمتابعة الأبوين وحرصهما على أن يراعي قواعد السلوك الاجتماعي والأخلاقي.

وهنا لابد لنا أن نقف أمام استعجال مقدم البرنامج في الربط بين كلمة «تأديب» وكلمة «ضرب» التي رآى أنها الأداة الفاعلة لتأديب الأطفال والمراهقين.

فلماذا حدث هذا الربط السريع في ذهنه بين الأمرين؟

وكم هو عدد الآباء والأمهات الذين يفكرون بالكيفية نفسها، ويؤمنون أن التأديب يعني الضرب؟

obeikandl.com

وقبل أن نستطرد مع أفكارنا حول مسألتي الضرب والتأديب نستأذن كل قارئ وقارئة أن يعودوا بذاكرتهم إلى الوراء ليستحضروا موقفا واحدا تعرضوا فيه للاعتداء الجسدي بالضرب أو الاعتداء اللفظي بالإهانة والسخرية والتقليل من الشأن، ثم ليستحضروا المشاعر التي تولدت لديهم أثناء مرورهم بهذه التجربة أكانوا سعداء فيما نزل بهم حينها أم لا؟! أكانوا يرون أن هذا النوع من العنف الذي مارسه الآباء ضدهم كان هو الخيار الوحيد القادر على إقناعهم بجدوى تغيير سلوكهم السلبي، أم أن ثمة خيارات أخرى عجز الآباء عن الوصول إليها. وبغض النظر عن طبيعة الاجابة الشخصية التي سيجيبها كل قارئ وقارئة بعد أن يمرا بتجربة التذكر التي ندعو إليها، فإن النقطة الحيوية الجديرة بالنظر هي التعرف على جوانب النجاح والفشل في تلك التجربة القديمة، فإذا كانت التجربة ناجحة فلاشك أن ثمة عاملاً مهماً كان متوافراً أثناء المرور بها وهو الذي أدى إلى نجاحها.

هذا العامل الداخلي تعبر عنه الرسائل اللفظية والجسدية التي صاحبت هذا الفعل، والتي تعتبر المؤشر الحقيقي على الدافع الذي يقف وراءه.

فإن كانت الألفاظ المنطوقة، ولغة الجسد تؤكد وجود عاطفة أبوية هي التي أدت إلى الضرب، وإذا كان الضرب خفيفا غير مؤلم ولا يحمل معنى الانتقام أو التشفي أو تفريغ شحنة انفعال شديدة صاحبت أحد الأبوين وأراد تفريغها في ذلك الابن أو تلك البنت

فلاشك أن الضرب الخفيف المصحوب بعشرات الرسائل القوية التي تؤكد صدق العاطفة، ورقة المشاعر، والخوف على الأبناء ستجعل من ذلك العنف شيئا مقبولاً ومبرراً في تلك الحالة فقط.

لكن الأمر المؤسف أن بعض الآباء والأمهات لا يملكون هذه النظرة الشاملة التي تجعل من استخدام الضرب سلوكاً استثنائياً يمارس في أضيق الحدود، وبعد أن يستنفدوا العشرات من الوسائل الإيجابية القادرة على إعادة الابن إلى الصواب دون أن يتعرض لأي نوع من الإيذاء البدني أو النفسي.

الأمر الذي يستدعي أن يراجع أولئك الآباء رصيدهم من المعرفة بطرق ووسائل التربية الفاعلة. وأن يمارسوا نوعاً من النقد إزاء ذلك الرصيد التربوي الضعيف الأثر.

نريد بالرفق.. ما تريد بالعنف

هل يمكن إيصال الأبناء إلى مستوى من الالتزام السلوكي والخلقي دون أن يكون الضرب أحد الوسائل التربوية المستخدمة لتحقيق ذلك الهدف؟ وكيف يمكن الحصول على رجل يستطيع تحمل الشدائد وهو لم يتلق يوما بعض العلقات الساخنة التي من شأنها أن تبصره بأخطائه وتعيده إلى جادة الصواب؟

مثل هذه الأسئلة كثيراً ما تتردد على ألسنة بعض الآباء والأمهات الذين ضعف لديهم ـ مع الأسف الشديد ـ تصور القواعد

التربوية القادرة على صناعة الإنسان المدرك لمسؤولياته، والمرتبط بأدواره الأسرية والمجتمعية على نحو يثير الإعجاب ويستمطر الثناء.

كما غاب عنهم ـ بالضرورة ـ معرفة الخطوات الصحيحة التي يتم من خلالها تطبيق تلك القواعد وخلق أجواء فاعلة تتيح للأبناء النمو المتوازن في النواحي النفسية والعقلية والبدنية كما تحفزهم على التفاعل الإيجابي مع البيئة الأسرية والمدرسية، وتطالبهم باتخاذ مواقف مسؤولة إزاء أحداث الحياة المختلفة.

ولأن الصحة النفسية للأبناء دليل على تحقق التوازن الداخلي، وإشباع الحاجات العاطفية والروحية والعقلية لديهم، فإن تركيز الأبوين على أن يتمتع أبناؤهما بالصحة النفسية السليمة يجب أن يكون هو الهدف المنجز الذي يضمن وجود طاقة من الأفكار الإيجابية حول الذات والأسرة والمجتمع.

وإزاء مثل هذا الطرح المثالي للمناخ الإيجابي الواعد يحق لنا أن نتساءل من جديد عن إمكانية أن يؤدي الضرب الى التمتع بالصحة النفسية وعن مدى فاعلية العنف السلوكي ضد الأبناء في إشعارهم بتقبل أبنائهم لهم وحرصهم على التواصل الإيجابي معهم.

إن الصحة النفسية تاج على رؤوس الأبناء الذين حباهم الخالق بآباء يحترمون إنسانية الإنسان، ويدركون أن أجمل ما في النفس

البشرية شعورها بالكرامة والعلو والتميز، ويؤمنون أن إهانة الإنسان -حتى ولو كان صغيراً في السن- هو عمل سلبي مهما كانت المبررات التي قد يسوقها دعاة العنف، أولئك الذين يعتقدون أن خريجي مدرسة الضرب هم من سيصنع الحضارة، ويغير مجرى التاريخ.

ولقد أخطؤوا في دعوتهم من حيث لا يشعرون فالعنف لا يولد إلا العنف المضاد. والقسوة لا تخلق إلا القسوة، والافتقار إلى تحفيز الابن على السلوك الإيجابي من خلال تكوين القناعات، وتقديم معايير صحيحة لن يؤدي في النهاية إلا إلى سلسلة من الأخطاء التي تدور بين أفراد هذه العائلة التي أخطأت الوصول إلى الهدف الصحيح.

حال مثل هذه العائلة أشبه بحال فريق كرة قدم للناشئين يقودهم شخص ضعيف البصر، وكلما أرادوا أن يستدركوا أخطاءهم صاح فيهم: الرمية من هنا.

ولأن بصره ضعيف فمن الطبيعي أن يخطئ تحديد مكان الرمية القادرة على اختراق الشباك والاستقرار فيها!! وهكذا لا يسمح العمر الصغير لأعضاء هذا الفريق ولا التجربة المحدودة، ولا القائد الذي لديه خلل في الإبصار أن يتقدموا بمستواهم، أو أن يحققوا شيئا يشعرهم بتميزهم طالما أن البيئة الأسرية تفتقر إلى مقومات النجاح في تنفيذ الأهداف التربوية الطموحة.

ينقسم أبناء هذه الأسر عادة إلى ثلاث فئات فإما أن يصبحوا أبناء متمردين على ذويهم ومجتمعاتهم يجيدون ممارسة العنف وتصديره، ويميلون إلى التطرف في أقوالهم وأفعالهم، ويؤمنون أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

وكأن المشاعر السلبية التي تسربت إلى العقل الباطن طيلة سنوات الجفاف العاطفي الأسري هي التي تقود أصحابها في الكبر لينتقموا من الحياة التي لم تعطهم الكثير حين كانوا أحوج الناس إلى الرعاية والاهتمام والدعم بشتى صوره وأشكاله.

واما أن تكون ردة فعلهم تجاه العنف الأسري إحساساً بضآلة الذات، وعدم القابلية للنمو والتطور، والشعور بقلة الفاعلية وضعف الموارد الذاتية التي تؤهل أفراد هذه الفئة ليكونوا أناسا قادرين على العطاء في مجتمعاتهم مما يؤدي بهم إلى الانطواء والعزلة وعدم الرغبة في المشاركة في الحياة العملية.

بينما تتركز أسوأ ردود أفعال الفئة الثالثة حين يصبح لديهم أبناء ينتظرون منهم بعض الرعاية والاهتمام.

إذ تسود علاقة عاطفية باردة بين هذه الفئة من الآباء الجدد وبين أبنائهم، ويتقمص في حالات عدة أفراد هذه الفئة الأدوار السابقة التي قام بها آباؤهم في الماضي حين كانوا هدفا للضرب والإيذاء، ويعيدوا من جديد تمثيل تلك الأدوار التي كرهوها من ذويهم، ليستهدفوا أطفالهم إما كنوع من الانتقام والتشفي، أو لخلل

في التصور والإدراك، أو الاعتقاد بأن العنف ضد الأبناء شيء طبيعي ومبرر نظرا لضعف قدرتهم على تقويم ذلك السلوك السلبي تقويماً موضوعيا يتناسب مع دوره في إحداث خلل وظيفي في نوعية العلاقة التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة.

وفي الحالات الأخرى وهي الأقل سوءا يمتنع هؤلاء الآباء عن ممارسة العنف ضد الأبناء ولكنهم في الوقت نفسه يعجزون عن التعبير اللفظي عن مشاعرهم التي يحملونها لأبنائهم لأنهم لم يألفوها في الصغر، ولم تلتقطها آذانهم من أبويهم في السابق.

تقودنا هذه النقطة إلى مسألة اخرى ترتبط بها من حيث الأهمية، وتتفق معها من حيث وجوب فهم أبعادها في تشكيل المفاهيم الصحيحة حول دور التعبير اللفظي في دعم العلاقة الأسرية، وإثراء الطفولة، وتقديم مثل عملي على العاطفة الفاعلة التي يعبر عنها بالكلمات، والرسائل الجسدية والمعنوية الواضحة الدلالة على عمق الرابطة بين أفراد العائلة.

وللدكتور بنجامين سبوك الاختصاصي النفسي العالمي رأي جدير بالأخذ بعين الاعتبار في هذه المسألة، حيث يرى أن التهديد بعدم الحب هو جريمة عاطفية لا يمكن تسويغها أو الصمت عنها.

والتهديد بعدم الحب هو نوع من التعبير اللفظي الشائع - مع الأسف - في قواميس الألفاظ الشخصية لنسبة لا يستهان بها من الآباء والأمهات.

حيث تتردد على ألسنتهم عبارات مثل: «أنا لا أحبك لأنك فعلت كذا وكذا» أو «إذا فعلت كذا فلن أحبك» وأمثالهما من العبارات التي تربط عاطفة الوالدين بسلوك معين، أو تنفي وجود تلك العاطفة إذا صدرت من الطفل مخالفة ما.

إن الآباء والأمهات الذين يطلقون قذائفهم الصوتية على الأطفال، ويعبثون بمشاعرهم على هذا النحو، عليهم أن يراجعوا رصيدهم من المعرفة والتمييز، ومن القدرة على الاختيار بين البدائل، وعلى انتقاء العبارات الصحيحة القادرة على حماية العلاقة الأسرية.

فالعاطفة الأبوية لا تشترط على الأبناء الالتزام بنظام سلوكي معين حتى تظهر وتعلن عن وجودها.

كما أنها لا تفرّق بين الابن المطيع أو الابن المتمرد في التعبير عن احتوائها للحالتين معا، وتقبلها للأبناء بغض النظر عن مدى التزامهم أو خروجهم على الأوامر والواجبات.

ولأنها عاطفة فاعلة فإنها تفرق بين نقد السلوك ونقد الذات، وهي تتدخل لإفهام الطفل بأن سلوكه هو المقصود بالنقد، أما ذاته فهي في منزلة سامية بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى.

obeikandl.com

نحو مصالحة واعية

هل هناك خطورة على المبادئ في ظل واقع سلبي يرخي بظلاله على الحياة من حولنا؟ وهل تنتهي مهمة الأبوين بمجرد اعتماد بعض قواعد التربية الإسلامية داخل المنزل؟

أو يكفي التزام الأبناء بأداء العبادات الشرعية لتتحقق لهم الحصانة النفسية، وتتوافر لهم القدرة على التكيف مع المجتمع على الرغم من وجود التحديات والاستفزازات والتعارض الشديد بين المفاهيم التي تعلموها في بيوتهم وبين الحياة خارج ذلك الحضن الدافئ حيث يغيب الأبوان، ولا يبقى في الذهن إلا تلك المفاهيم التي تشربوها في سنوات الطفولة؟!!

إن هذه الأسئلة وغيرها باتت جديرة بالطرح والتناول على جمهور الآباء والأمهات، وحري بهذا الجمهور المتميز أن يدعى للحوار والبحث حول الطرق العملية القادرة على دمج الأبناء والبنات مع المجتمع الخارجي دون حدوث أضرار معنوية أو ردود أفعال سلبية تعيق انطلاقة الناشئ وتضعف من قدرته على التواصل مع المجتمع المحيط به، خاصة وأن الواقع يؤكد أن عدداً من الشباب من الجنسين حينما وصلوا إلى المرحلة الجامعية، ورأوا ذلك الخليط البشري المتنوع الثقافات والقادم من بيئات غاية في

الاختلاف والتباين أصيبوا بالإحباط، وشعروا بخيبة الأمل. ولربما جر هذا الشعور السلبي معه إحساساً «بالغربة النفسية» والرغبة في الانطواء والعزلة طالما أن هناك تباينا شديداً بين المثاليات التي تربوا عليها في المنزل، وبين الواقع الجامعي المليء بالصخب والضجيج وبأشياء أخرى مختلفة لم يألفوها من قبل!!

والحق أن مثل هذه الصدمة النفسية كان ينبغي أن يحسب لها الآباء ألف حساب طالما أن هناك تناقضا في سلوك شرائح من طلاب وطالبات الجامعة مع ما تلقاه أبناؤهم في الأسرة من مثاليات لا يرحب بها الواقع في كثير من الحالات.

والصحيح أن بعض أولياء الأمور يخيل إليهم أن كثرة الحديث حول جدارة القيم والمبادئ بالعمل والتطبيق، وقدرتها على إحداث التغيير الإيجابي في حياة الناس تكفي وحدها لتنير الطريق لأبنائهم، دون وجود برنامج تدريبي طويل النفس يحمي تلك القواعد التربوية من السقوط أمام التحديات.

كما أن الخلل واضح في التربية التي تعتمد على التلقين والوعظ المجرد دون أن تصاحبها مشاركة فعلية لحياة الأبناء الاجتماعية، ومن دون الاستماع اليومي المكثف للتجارب الحياتية التي يمرون بها حيث البيئة المدرسية والسلوكيات المختلفة التي يرصدها الصغار ويقفون أمامها في حيرة شديدة لا يملكون معها القدرة على استيعابها والحكم عليها دون رعاية أبوية سليمة.

openkanal.com

وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يقدم أولياء الأمور في هذا العصر المفتوح على العالم «كاتالوجا» من التعاليم النظرية ثم يرفعوا أيديهم عن الناشئة وكأنهم قد أنجزوا كافة مهامهم التربوية دفعة واحدة!!

ولربما كانت الفجوة الأكبر من فجوات العمل التربوي في عالمنا الإسلامي الاعتماد الشديد على أسلوب التلقين والأمر والنهي دون توافر آلية عمل مرنة تخدم الناشئ، وتسهل له الرجوع إلى أبويه لأخذ المزيد من المشورة والخبرة فيقف على طرق استيعاب الواقع المتناقض والتأقلم معه، بل والدخول في أجوائه بمعنويات مرتفعة، ورغبة شديدة في التعلم من الحياة والاستفادة من دروسها العملية.

وليس من الصواب أن يخاصم الإنسان الواقع ليحافظ على رصيده الأخلاقي بل العكس هو الصحيح، إذ كلما اندمج الإنسان مع واقعه ازداد قدرة على الإفادة والاستفادة طالما أن هناك من أحسن تربيته ومشاركته في مشاعره وأفكاره.

obeikandl.com